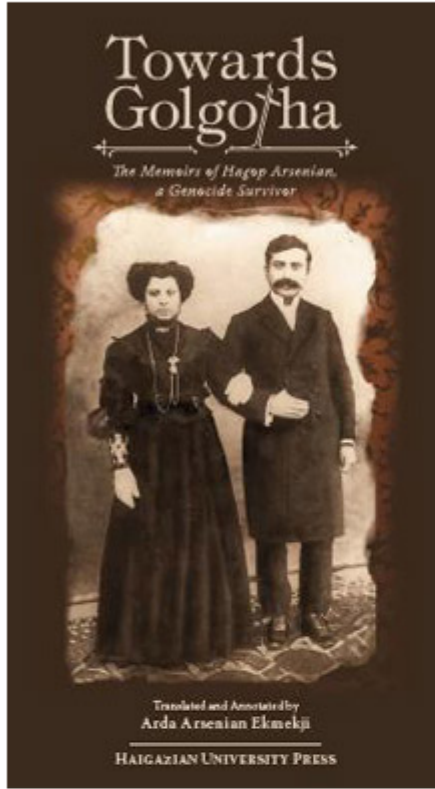


"لا تعبر جسر دير الزور..."

"نحو الجلجلة" ... كتاب لأردا أرسنيان اكمكجي

منصور بو داغر ، الثلاثاء 13 أيلول 2011



بعد ٩٦ عامًا على المجزرة، "نحو الجلجلة"، كتاب جديد عن الإبادة الأرمنية. يوميات لـ"أغوب أرسنيان"، شاهد حيّ من عداد قافلة الموت، أراد عبر يوميات طريق الجلجلة هذه أن يشاركنا جروحنا وربما أغفل عنها يومًا الإنجيل.. ولأنّ أسئلة كثيرة ما زالت دون أجوبة، عملاً بالأية: "تعرفون الحق والحق يحزركم" .. كان الكتاب.

الآية هذه ختمت بها عميدة كليّة الفنون والعلوم في جامعة "هاياغازيان" الدكتور أردا أرسنيان اكمكجي كلمتها خلال حفل توقيع الكتاب الذي نقلته من الأرمنية إلى الإنجليزية وحررته. أصقلته بمقدمتها وملاحظات وإضافتها للخرائط والصور وقد استندت بذلك إلى تسجيلات بصوت أبيها نوبار أرسنيان الذي، بناء على طلب عائلته، قرأ مخطوطًا لوالده أغوب أرسنيان تضمّن وقائع رحلته مع عائلته أثناء الإبادة الأرمنية من إزميت إلى فلسطين.

جامعة "هاياغازيان" في افتتاح قسم جديد خاص بالنشر: "Haigazian University Press" رعت إصدار الكتاب وأقامت حفل توقيع بالمناسبة في باحة مبنى "Heritage Building" المرمّم حديثاً.

تخلّل الحفل كلمة لوزير الاعلام السابق الدكتور طارق متري، وكلمة لرئيس الجامعة الدكتور بول هيدوستيان وللعميدة اكمكجي.

وزير الاعلام السابق، طارق متري



الدكتور طارق متري

في كلمته أشار متري إلى أنّ هناك أوقات تكون فيها الذكريات كزيارة المتحف... أي أنّها ممتعة ومحفّزة وذات مردود ثقافي كبير. أما قراءة ذكريات أغوب أرسنيان فهي تجعلنا معنيين بموضوعها أكثر بكثير من مجرد زيارة متحف، ففيها كثافة عاطفيّة أكبر وهي زيارة لقرن من الذكريات في إطار البيوغرافيا الاجتماعية المرتبطة بالشعب الأرمني. ولفت إلى أنّ ذكريات أرسنيان الخاصة تزوّدنا بالمعلومات عن الذاكرة الأرمنية الجماعيّة وقد تميزت بوقوعها القوي على عملية البحث عن الذات الأرمنية. وشدد على أنّ الوقائع التاريخيّة التي رواها أرسنيان ليست على غرار البحث التاريخي الذي يقوم به المؤرّخون، فهي جاءت طبيعيّة بمعنى أنّها لم تكن عمليّة تذكّر مهندسة إنّما عمليّة تذكّر طبيعيّة؛ ومن دون أن نغفل الألم الذي تعكسه، فهي قدّمت لنا على طريقة حساب عن اختبارات حياة فرد.

وشدّد متري على أنّ هذه الذكريات لا تقتصر فقط على ما تظهره إنّما أيضًا على ما اختارت المؤلّفة إخفاؤه، فنحن قارؤوا الذكريات نركّز أحيانًا على ما لم يُقال (Le Non-dit) سواء تمّ تجاهله قصداً أو ضمناً أو سواء ألقى الظلال على ما تمّ التصريح جهازًا به. فخلال إحدى المحادثات مع جدّها ذكرت المؤلّفة أردا أنّ عينيها تجعدت على الأرجح لاسترجاعه لذكريات أليمة لا علاقة لنا بها، ونحن لا نعلم كم من المعلومات خلال الأحاديث العائليّة التي جرت خضعت لـ "إحتواء" ولم ترد بالتالي في الكتاب.

في المقابل، ووفق متري، نحن متأكدون بأنّ ذكريات أغوب أرسنيان لم يعاد خلقها، فيغض النظر عن "شرعيّة" ما فعله علاقة الشخص من استرجاع الذكريات من املحة تنظيمها ككلامها فقلتُ أنا انك لم تبتعد عنها محببًا من الجلجلة

يعتبه حاداً المستعص عند الاستعدادية تدريجياً من إعادة تنظيم وسينم بها نوب إرساليات يبدو منذ سنوات من التجريب فهو لم يعيد هندسة ذكرياته ولا تنظيمها ولا إعادة خلقها، باستثناء طبقاً الأمكنة والتواريخ التي يستعملها في مادته.

وأضاف متري: على الرغم من ذلك فإنّ هذه المذكرات منظّمة، ليس فقط وفق التتابع التاريخي إنّما عبر نيّته بزرع الشجاعة والذكاء في نفوس أولاده وأحفاده وتقوية ثقتهم بذاتهم كما وإيقاظ حالة الحذر فيهم.

وركّز متري على الناحية الدينيّة الجريئة لدى أرسنيان، حيث يقول إنّه في أوقات الرعب شعر بأنّ الله هجره، كما وأنّه شعر وكأنّ الله كان متدخلًا في حصول المأساة، لكن ذلك ليس على ما قد يعتقد البعض بأنّه كفر، إنّما هو جريمة الغضب، وهو حتى نوع من الغضب النبويّ ضدّ الله، ومن يعلم في ثقافة الأنبياء يعرف أنّهم غالبًا ما كانوا غاضبين... لكنّه استمر مع الله وإنّ بمحادثة غاضبة ليس فيها شكوى سائلًا الله: ماذا تنتظر لكي تنطبق عدالتك وعقوبتك الأبدية على هؤلاء الأشرار؟ (ص.116)... ويتساءل أحيانًا في ما لو أنّهم كانوا أمة رهيبة ليختار الله أعضاء "الاتحادي" (الأعضاء في حزب "الاتحاد والترقي" التركي)، المسؤولين عن الإبادة، ليوقع قصاصه بحق شعبه عبر وسائل غير مسبوقة...

إنّ هذه الذكريات ستساهم، على حدّ قول متري، في شفاء الذاكرة الأرمنيّة الجماعيّة، وما يدفعنا إلى القول بشفاء هذه الذاكرة فهو، وكما نعلم أنّ معظم تاريخ تركيا الحديثة تمّ الصمت عنه، إلا أنّ هذا الصمت تمّ خرقه خلال السنوات الفائتة، علمًا أنّ هناك "ثقافة حجب" لا تزال قائمة والمؤلّفات عن الذاكرة لا تزال مثقلة بنكرانها وتكذيبها؛ مشيرًا في هذا الاطار إلى أنّ هناك عددًا كبيرًا من المؤلّفين الأتراك اليوم دمجوا من خلال أعمالهم الشجاعة التاريخ الأرمني في قراءاتهم بالتاريخ التركي على اعتبار أنّ التاريخ الأرمني والمأساة الأرمنيّة هما جزء واحد من تاريخهم وهذا مهم جدًّا.

وختم متري بالإشارة إلى صديق سوري له يدعى ياسين الحافظ.. والدته أرمنيّة والذي قال له إنّ أحد الأشياء التي لم تفعلها أبدًا والدته خلال المجازر الأرمنيّة هي عبور جسر دير الزور (المؤدي من تركيا إلى سوريا أيام السيطرة العثمانيّة على تلك المناطق كافة)، ولغت متري إلى أنّ هذا ما فعله أرسنيان بناء على النصيحة التي أعطيت له، **ولم يعبر جسر دير الزور** كون المجزرة حصلت على الجهة المقابلة من الجسر، فبالنسبة لي، يقول متري، إنّ قصة أبو نوبار هي قصة أم ياسين، شاكرًا بذلك العميدة "أردا" للسماح له بالمشاركة في هذه القصة مع أناس قد يقولون عند قراءتهم ذكريات أغوب أرسنيان بأنّ قصته هي قصتي أو قصته أو قصتها وبذلك فهم ليس فقط يتذكرون إنّما يكتبون التاريخ.



الدكتور بول هيدوستيان

رئيس الجامعة

بداية، ذكر رئيس الجامعة الدكتور بول هيدوستيان أنّه منذ أكثر من عام أعلن أنّ المبنى الذي نقف أمامه وعمره أكثر من 80 عامًا وتمّ إعادة تأهيله بالكامل، أعلن بأنّ اسمه سيكون "Heritage"، مشدّدًا على أنّ التراث بالنسبة لجامعة "هايازيان" يبقى علامة مميّزة سواء في الهندسة المعماريّة أو في اسمها أو غيره الكثير. وأشار إلى أنّه اليوم يأتينا إلى الحياة تراثًا عائليًا قيمًا بشكل كتاب.

ولغت إلى أنّ المنشورات التي كانت تهتم بها الجامعة عبر مجلّتها وغير بعض الكتب في مواضيع محدّدة فإنّ "نحو الجلجلة" هو أول كتاب لنا يصدره قسم النشر في جامعة "هايازيان".

كما أكّد الدكتور بول هيدوستيان على أنّ الحياة قصة يمكن تتبّعها عبر قصص العائلات على غرار قصة عائلة أرسنيان، والتراث والتاريخ والقصص لها معنى مفيد عندما نتولى تفسيرهم وتحليلهم وتقديمهم على غرار أنّها عطاءات هذه الحياة. ومرحلة الانتقال نحو الجلجلة تبيّن، في فترة لاحقة من الحياة، وكأنّها مرحلة فوز في الحياة نسقيها "القيامة". وعبر الشعب الأرمني وكتبهم الطبيعيّة في القرن العشرين، والتي ما زالت مستمرة، والتي حملت عادة عناوين كـ"الإبادة"، أو "اللاعذالة"، أو "الجلجلة"، إلا أنّنا نعرف ونؤمن بأنّ محتوى الكتب الأرمنيّة هذه هي تأريخ للقيامة وبحث عن الحقيقة العدالة وهي بحث عن الحياة.

وإذ لغت إلى معاني أنّ تكون مؤلّفة هذا الكتاب هي عميدة الفنون والعلوم في الجامعة، أكّد أنّ قصة جدّها هي قصتها وأصبحت قصتها أكثر خلال السنوات القليلة الفائتة عندما عملت على المخطوطات وتحليلها لها، وهذه القصة أصبحت قصتنا بشكل أو بآخر عندما نقرأها.

وهنأً الدكتور بول هيدوستيان العميدة اكمكجي وعائلة أرسنيان بهذا اليوم الذي يتم الاحتفال فيه بالحياة، مؤكّداً بأنّ الجميع سيستمتع، على غرارها، بقراءة الكتاب، ومعتبراً أنّ الحضور العاشد اليوم، في نهاية نهار عمل، هو بمثابة تحية قدّمتها الى العميدة اكمكجي والى قسم النشر الجديد في الجامعة، وبالتالي تحية لتاريخ العائلة، أملاً أن يُلقى هذا القسم الجديد الضوء مستقبلاً على قصص غير معروفة من الحياة.



الدكتورة أردا أرسنيان اكمكجي

أردا أرسنيان اكمكجي

العميدة اكمكجي توجّهت بالشكر في بداية كلمتها لكل من ساهم في إنجاز عملها ولاسيّما من بينهم مكتبة جامعة "هايازيان" لتوفيرها كل الكتب الخاصة بكل نواحي الكتاب وحتى تأمينها لها عند الطلب.

وفي إطار مرورها على مختلف أقسام الكتاب، ذكرت العميدة أنّ عام 1919 في بلدة بيت لحم كتب جدّها أعوب أرسانيان عقب انتهاء الحرب العالميّة الأولى الكلمات الأتية: الآن وقد انتهى المخاض العالمي، والآن وحيث تجري محادثات للقوى العظمى في العاصمة الفرنسيّة باريس، والآن وقد أصبح هناك أمل للأرمن بالعودة، فالآن هو الوقت لكتابة ما حصل كي يتعلّم أولادي وأحفادي دروساً للمستقبل (ص.21). وأشارت

اكمكجي إلى أنّ من بين الدروس المستفادة من هذه القصة هو الدعوة إلى القتال من أجل العدالة، وأن يكون لدينا استشراف للمستقبل، وأن نكون حذرين ولكن في الوقت عينه مثال في حسن التصرف للآخرين.

ولفتت اكمكجي إلى أنّ جدّها الذي ولد في منطقة نكوميديا شرق اسطنبول وينتمي إلى عائلة فقيرة، تمكّن من نيل إجازة في الصيدلة من جامعة اسطنبول، ويذكر بنفسه أنّه في 9 آب 1907 وبعد حلفه القسم التقليدي أصبح صيدلياً محلّياً. وأشارت إلى أنّه كان فخوراً جدّاً بإنجازه لأنّه قام به من دون أيّ منحة دراسيّة من أحد وعلى حدّ قوله "كنت مهندس حياتي ومستقبلي". وأضافت: بعدها تزوّج ورزق بولدين نوبار والدي وأخوه الأصغر نورير، وأسّس نفسه في مدينة إزميت على بحر مرمرية مع توقّعات كبيرة للمستقبل. وأردفت: لكن في 24 نيسان 1915 بدأت عمليّة ترحيل الأرمن، وفي 26 تمّوز وصلت الأوامر إلى سنجق إزميت حيث قال: وُضعتنا كلّنا في عربات في محطة إزميت للقطارات ومع صافرة الانطلاق مرّ القطار أمام صيدليّتي التي أمضيت سنوات في تأسيسها ولم أستطع حبس دموعي أكثر فبدأت أبكي كالاطفال، ورحّلنا يومها دون أي أمل بالعودة.

وأشارت أردا إلى أنّها عام 1996، وخلال اجتماع للعائلة في بيروت، قرأت هذه المخطوطة التي نصّها جدّها لأوّل مرّة بعد أن أتى بها عمّها حيرار من ولاية أوتاووا في كندا، ويومها سألت والدها الراحل والبالغ من العمر حينها 84 عاماً قراءت مخطوطة جدّها وتسجيلها على شريط ممغنط، وهو ما فعله لمُدّة أسبوع كامل قرأ المخطوطة التي سجّلت على 6 أشرطة؛ ومعتدرة من غير الناطقين باللغة الأرمنيّة، أسمعت العميدة بضع دقائق من التسجيلات بصوت أبيها.

ودكرت اكمكجي أنّ كل هذه العذابات التي قاصها الأرمن بقيت دون تسمية، كونه فقط في عام 1944 أطلق رفايل لمكين (Raphael Lemkin) كلمة "إبادة" ومن ناحيته سمّاها روبيرت فيسك "أول هولوكوست في القرن 20".

وإذ ذكرّت بأنّه لمدة 13 شهراً استمر الترحيل، لفتت اكمكجي إلى أنّه كان هناك محطّتان قبيل الوصول إلى دير الزور -المذبحة الأخيرة للأرمن- وفي معتقل اسمه "أبو هرار" كتب أعوب أرسنيان أنّه استدعي من قبل أحد المسؤولين هناك لكي يساعد أحد الأتراك الأعيان الذي يعاني من التهاب الحنجرة وكان عائداً من دير الزور باتجاه حلب، فأعطاه الدواء دون مقابل ولشدة فرحه نصحه بعدم الذهاب إلى دير الزور.. وفي حال كان ذلك مستحيلاً، نصحه بـ"عدم عبور جسر دير الزور مهما كان الثمن" (ص.118). وهذا ما حصل، هو لم يعبر الجسر عكس الكثيرين ومن بينهم أفراداً من عائلته، ومن كل المجموعة التي غادرت في 26 تموز نجا فقط 8 أشخاص... وتابعت اكمكجي: عندما وصل إلى حلب طلب منه الذهاب إلى أورشليم كصيدلي في الجيش العثماني، وهي كانت لأوّل مرّة منذ عمليّة الترحيل حيث شعر أنّه رجل حر مرتدياً الزي العسكري ولا أحد يضايقه. عائلته بقيت في المعتقل.. وقد نجح بعد مراسلة رئيس البعثة بإرسالها إلى حلب حيث كان اللقاء مجدّداً.

وأوضحت اكمكجي أنّ القسم الثاني من الكتاب يتضمّن وصف أعوب أرسنيان لذكرياته في بلاد الانتشار الـ"دياسبورا" بين عامي 1919 و1940، وحيث قضى 20 عاماً يعمل صيدلي في مستشفى في مدينة عزة، وخلال هذه المرحلة وصف أرسنيان الأمور كافة من كبرها إلى صغورها، ولما يحصل ليس فقط في فلسطين إنّما أيضاً في الشرق الأوسط، وعلى سبيل المثال كان الطلب الوحيد للفلسطينيين من الحكومة البريطانيّة هو الوعد بأن توقف

الهجرة اليهودية وأن تلغي وعد بلغور. في مكان آخر، ردة الفعل لأهل غزة عقب اغتيال يوسف أفندي علمي كانت المطالبة بالانتقام وزرع اللاإستقرار (ص.194)...

وذكرت اكمكجي أنها، في نيسان من العام 2010، وبمناسبة الذكرى الـ95 للإبادة الأرمنية نظمت رحلة إلى منطقة دير الزور ليكون بمثابة خاتمة وشفاء من الألم، مشيرة إلى أنها عندما رأت بقايا من دفنوا هناك تذكرت أن القدر والعناية الإلهية فقط كانا وراء نجاة عائلتها من الإبادة.

وإذ شددت على أن الرحلة لن تنته قبل قيام العدالة ووضع حد للإفلات من العقاب وأنه لن يكون قبل ذلك من رحلة ختامية لكل الذين ساروا نحو الجلجلة... ختمت اكمكجي بإهداء الكتاب إلى الجيل الرابع من الناجين من الإبادة... وبالسؤال الذي بدأنا فيه المقال: لماذا بعد 96 عامًا على الإبادة الأرمنية نشر كتاب عنها وعن نتائجها؟...